

الفصل الثاني
الإعجاز
التأثيري للقرآن الكريم

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

الإعجاز التأثيري للقرآن: هو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم أشار إليه السابقون، ويتمثل فيما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه ولا يستطيع هذا السامع أو القارئ مقاومته ودفعه ولا يقتصر ذلك على المؤمنين به. أو هو تأثير القرآن الكريم في النفس الإنسانية عندما تسمعه، وتفاعلها معه حتى لو كانت نفساً كافرة.

وقد أمر الله تعالى في كتابه بإسماع المشركين القرآن الكريم ليكون ذلك عوناً على دعوتهم للإسلام. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦).

وقد لاحظ كثير من علماء التفسير والقرآن والبلاغة في القديم والحديث تأثير القرآن الكريم في القلوب وأثره في النفوس فاعتبروا ذلك التأثير من وجوه إعجاز القرآن وعبروا عنه بعبارات متفاوتة.

وكان أول من اعتبر هذا التأثير القرآني وجهاً خاصاً من وجوه الإعجاز هو الإمام أبو سليمان الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨هـ، فقد نص عليه نصاً في رسالة (بيان إعجاز القرآن) فقال: «في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن، منظوراً ولا منشوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق

وتغشّاها الخوف والفرق^(١)، تقشعرّ منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها.

فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوّلوا عن رأيهم الأوّل وأن يركنوا إلى مسالمتهم، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيماناً^(٢).

أثر القرآن الكريم على المؤمنين:

كلما ازداد الإنسان المؤمن من القرآن ازداد حبّاً في الله ﷻ، وهذا راجع إلى الإيثار، وراجع إلى أن القرآن فيه زيادة في الهدى والشفاء للقلوب، فالأوامر والنواهي والأخبار التي في القرآن هي هدى وشفاء لما في القلوب، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ (فصلت: ٤٤). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢).

وهذا سلطان خاص على الذين آمنوا في أنه يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور في المسائل العلمية وفي المسائل العملية، لهذا ما تأتي فتنة ولا اشتباه إلا وعند المؤمن البصيرة لما في هذا القرآن. فالمؤمن الذي يقرأ القرآن ويعلم حدوده ويعلم معانيه عنده النور في الفصل في المسائل العلمية والعملية، وهذه لا يلقاها إلا أهل الإيمان.

وعندما نتبّع أثر كلام الله تعالى - القرآن الكريم - فيمن سمعه وتدبّره من البشر فإننا نجد أنّ أوّل من يتأثر بكلامه هم من تلقّوه، وكلّفهم الله ببلاغه للبشر وهم

(١) عراها: أصابها، غشيها، ألّ بها. وجب القلب: خفق واضطرب ورجف. فرق: فرع، جزع واشتدّ خوفه.

(٢) بيان إعجاز القرآن، ص: ٧٠.

الأنبياء والرسل، يقول الله تعالى بعد أن تحدّث عن بعض الأنبياء والرسل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝﴾ (مريم: ٥٨).

فبعد أن ذكر ﷺ هؤلاء الأنبياء المكرمين، وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومنة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله، كان ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩).

وأن بعضهم ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: من ذريته ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ﴾ أي ومن ذرية إبراهيم، ومن ذرية يعقوب، فهذه خير بيوت العالم، اصطفاها الله، واختارهم، واجتباهاهم ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾.

وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرغبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صما وعميانا.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

وجل في القلوب:

لقد حاز المؤمنون عند ربهم درجة عالية رقيقة لتأثرهم بالقرآن الكريم، تأثراً عملياً صادقاً، له نتائج في واقع حياتهم وحياة مجتمعاتهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال: ٢ - ٤).

لما كان الإيمان قسمين: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيماناً دون ذلك، ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت ورهبت، فأوجب لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك. والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ من فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيمانهم. والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده. وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها. وفيها دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص

بضدها. وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميهِ، وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبُّر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه.

ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عالية بحسب علو أعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

سجود وخشوع:

ويزداد أثر القرآن في النفوس فيجعلها طيعة لأوامره، منقاداً لإشارته مستلهمة لما فيه تحشع أجسادهم في سجود، وتلهج ألسنتهم بذكر الله ﷻ، وتنفطر أقدامهم في قيام الليل والناس نيام، وتفيض أنفسهم قبل أيديهم بالإنفاق في سبيل الله. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٥ - ١٧).

ذكر ﷻ المؤمنين بآياته، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيـان، وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ بآيات ربهم فتليت عليهم آيات القرآن، وأنتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودُعوا إلى التذكر، سمعوها فقبلوها، وانقادوا، و﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين لها، خضوع ذكرٍ لله ﷻ، وفرح بمعرفته.

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا بقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقَّوها بالقبول، والتسليم، وقابلوها بالانسراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿ نُسْجَافِي جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي: ترتفع جنوبهم، وتترعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألد عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى. ولهذا قال: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفًا أن تُردَّ أعمالهم، وطمعًا في قبولها، خوفًا من عذاب الله، وطمعًا في ثوابه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق، قليلا كان أو كثيرا ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي، خير مطلقًا، سواء وافق غنيًا أو فقيرًا، قريبًا أو بعيدًا، ولكن الأجر يتفاوت، بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

وأما جزاؤهم، فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي. أي: فلا يعلم أحد ﴿مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح السرور، واللذة والحبور^(١).

فكما صلوا في الليل، ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قشعريرة الجلود:

يقول الله تعالى عن القرآن العظيم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣).

(١) حَبَرَ الشَّخْصَ: سَرَّهُ وَكَرَّمَهُ وَنَعَّمَهُ.

فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجل المعاني، لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهها في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم.

﴿مَّثَانِي﴾ أي: تُتَنَّى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتُتَنَّى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته، وحُسنه، فإنه ﷻ لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكِّمة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعدَّ عهدُها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حُسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعا، ولم تحصل النتيجة منه.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي الأبواب المهتدين، فلهذا قال تعالى: ﴿نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هُدَىٰ اللَّهُ﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ أي: بسبب ذلك ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم. ﴿هُدَىٰ اللَّهُ﴾ الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ حَسَنَ قَصْدِهِ.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.

فهذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار لما يفهمونه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد، فتشعرّ منه جلودهم من الخشية والخوف، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء، هو تلاوة الآيات وسماع أولئك، نغمات الأبيات من أصوات المغنين والمغنيات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سجّداً وبكياً بأدب وخشية ورجاء ومحبة هؤلاء لم يكونوا عند سماع الآيات متشاغلين لاهين عنها، بل مُصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلذا إنما يعلمون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: إنهم يلزمون الأدب عند سماعها فتشعرّ جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة.

أمثلة على تأثير القرآن الكريم في نفوس المؤمنين:

الأمثلة على تأثير القرآن الكريم في نفوس المؤمنين عديدة، على مدار التاريخ الإسلامي، وفي مقدمة الذين أثر فيهم القرآن، من نزل على قلبه القرآن محمد ﷺ الذي كان يتأثر وهو يتلو القرآن، ويتأثر وهو يسمع القرآن، ويبدو التأثير دموغاً غزيرة تذرّفها عيناه الشريفتان.

وكان رسول الله ﷺ أوّل المتأثرين بالقرآن الكريم تأثراً باطنياً وظاهرياً وكفى سلوكه شاهداً على ذلك وبرهاناً عليه، فقد قال عبْدُ الله بنُ الشَّخِيرِ رحمه الله: «رَأَيْتُ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيْزٌ كَأَزِيْزِ الْمَرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ» (رواه أحمد، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي).

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْهِ وَهُوَ عَلَى الْمُنْبِرِ. فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُورَةِ النَّسَاءِ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١). فَظَنَرْتُ إِلَيْهِ وَعَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ. (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني).

ولقد أثر القرآن الكريم في نفوس الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تأثيرًا عظيمًا قادهم إلى الانتقال من الشكر والكفر والجاهلية إلى الإسلام. ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان رقيق القلب إذا قرأ القرآن لم يملك عينيه من البكاء. (رواه البخاري ومسلم).

من مظاهر تأثير المؤمنين:

- ١- تنافسهم في حفظه وقراءته في الصلاة وفي غير الصلاة.
- ٢- عملهم به وتنفيذهم لتعاليمه في كل شأن من شؤونهم تاركين كل ما كانوا عليه مما يخالف تعاليمه، ويجافي هداياته، طيبةً بذلك نفوسهم طيبةً أجسامهم سخيةً أيديهم وأرواحهم حتى صهرهم القرآن في بوتقته وأخرجهم للعالم خلقًا آخر مستقيم العقيدة قويمة العبادة طاهر العادة كريم الخلق نبيل المطمح.
- ٣- استبسالهم في نشر القرآن والدفاع عنه وعن هدايته، فأخلصوا له وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه وهو مدافع عنه، ومنهم من انتظر حتى أتاه اليقين وهو مجاهد في سبيله مُضَحِّ بنفسه ونفيسه.
- ٤- ذلك النجاح الباهر الذي أحرزه القرآن في هداية العالم، فقد وُجد قبل النبي ﷺ أنبياء ومُصلحون وعلماء ومشرِّعون وفلاسفة وأخلاقيون وحكام ومتحكمون فما تسنى لأحد من هؤلاء بل ما تسنى لجميعهم أن يُحدثوا مثل هذه النهضة الرائعة التي أحدثها النبي محمد ﷺ في العقائد والأخلاق وفي العبادات والمعاملات وفي السياسة والإدارة وفي كافة نواحي الإصلاح الإنساني.

وبسبب هذا الدستور الصالح الإلهي المصدر أحياء موات الأمة العربية في أقل من عشرين سنة، فهبوا بعد وفاته ﷺ ينقذون العالم ففتحوا ملك كسرى وقيصر، وفتحوا المشرق والمغرب، وخفقت رايته على نصف المعمورة في أقل من قرن ونصف قرن من الزمان.

القرآن الكريم هدى وشفاء ورحمة للمؤمنين؛

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٤). فالقرآن هدى وشفاء ورحمة للمؤمنين، فهو علاج لأمراض القلوب (الشبهات والأهواء) وأمراض الأبدان، فهو شفاء، وكلمة شفاء نكرة فهي تشمل كل أنواع الشفاء.

فعندما تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذي تعاني منه نفسياً ويُقوي قدرتك على مقاومة الداء؛ ويُفجّر طاقات الشفاء الكامنة في أعماقك، وهو رحمة لك حين تتخذه منهجاً، وتطبّقه في حياتك فيمنحك مناعة تحميك من المرض، فهو طبّ علاجي وطبّ وقائي في آنٍ واحد.

والقرآن هدى للمؤمنين، يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة، ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية، والأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفى القلب.

تأثير القرآن في نفوس الكفار؛

إن أحد كفار قريش - وهو الوليد بن المغيرة - لما سمع القرآن مدحه وأثنى عليه فقال: «إِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثَمِّرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطُمُ مَا تَحْتَهُ».

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُعِيرَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَانَتْهُ رَقٌّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا». قَالَ: «لَمْ؟». قَالَ: «لِيُعْطَوْكَه فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لَتُعْرِضَ لِمَا قَبْلَهُ». قَالَ: «قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا».

قَالَ: «فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهِ لَهُ». قَالَ: «وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجَنِّ، وَاللَّهِ مَا يُشَبِّهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُتَمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطُمُ مَا تَحْتَهُ»^(١). قَالَ: «لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ».

قَالَ: «فَدَعْنِي حَتَّى أَفَكِّرَ»، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: «هَذَا سِحْرٌ يُؤَثِّرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَتَزَلْتُ ذَرَنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِدًا»^(٢). (رواه الحاكم في المستدرک، وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني).

فإذا كان هذا تأثير القرآن في مُشْرِكٍ حتى يستشعر هذه الطلاوة وتلك الحلاوة فكيف بمسلم عمر قلبه بالإيمان وأشرق نفسه بنور القرآن.

ويروي التاريخ أن الإحساس بتأثير القرآن الكريم كان يجذب رؤساء الكفار المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة النبي ﷺ في بيته، على ما كان من نهيمهم عن سماعه وتواصيهم بذلك.

(١) (الرجز): إنشاد الشعر، وهو بحر من بحوره عند العروضيين. (أثر الحديث): ذكره ونقله عن غيره. (طلاوة/ طلاوة/ طلاوة): حُسن، وروْنق. (مُغْدِق): كثير المياه.

(٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِدًا﴾ (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَيْنَ شُهُودًا (١٣) وَوَهَّدْتُ لَهُ تَهْجِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِنْبِتَانِ غِنْدًا (١٦) سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) (المدرش: ١١ - ٣٠).

يُرَوَى أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَأَبَا سُفْيَانَ وَالْأَخْنَسَ بْنَ شَرِيْقٍ خَرَجُوا لَيْلَةً لِيَسْمَعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فِي بَيْتِهِ، فَأَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسًا لِيَسْمَعَ مِنْهُ، وَكُلُّهُمْ لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِ صَاحِبِهِ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا أَصْبَحُوا وَطَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَتَلَاوَمُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لَا تَعُودُوا فَلَوْ رَأَيْتُمْ بَعْضُ سَفَهَائِكُمْ لَا وَقَعْتُمْ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا».

ثُمَّ انْصَرَفُوا، حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَّةُ، عَادَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى مَجْلِسِهِ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِثْلَ مَا قَالُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ. ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ، أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسَهُ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالُوا: «لَا نَبْرَحُ حَتَّى نَتَعَاهَدَ أَنْ لَا نَعُودَ»، فَتَعَاهَدُوا عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا.

فَلَمَّا أَصْبَحَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ أَخَذَ عَصَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: «أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِكَ فِيْمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ». فَقَالَ: «يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ أَشْيَاءَ أَعْرِفُهَا وَأَعْرِفُ مَا يُرَادُ بِهَا». فَقَالَ الْأَخْنَسُ: «وَأَنَا وَالَّذِي حَلَفْتُ بِهِ». ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا الْحَكَمِ مَا رَأَيْتُكَ فِيْمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ؟». فَقَالَ: «مَاذَا سَمِعْتُ! تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفُ؛ أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَافَيْنَا عَلَى الرُّكْبِ، وَكُنَّا كَفَرَسِي رَهَانٍ، قَالُوا: مَنَا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَتَى نُذْرِكُ هَذِهِ؟ وَاللَّهِ لَا نَسْمَعُ بِهِ أَبَدًا، وَلَا نُصَدِّقُهُ». فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ. (رواه البيهقي في "دلائل النبوة").

تأثير القرآن في هداية غير المسلمين:

إِنَّ أَيَّ امْتِدَادٍ لِلْإِسْلَامِ فِي شَتَّى بَقَاعِ الْمَعْمُورَةِ يُعَدُّ امْتِدَادًا لِنُورِ الْقُرْآنِ وَتَأْكِيدًا عَلَى أَنَّهُ الْكِتَابُ الْحَقُّ الْمُنَزَّلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. كَمَا أَنَّ هَذَا الْامْتِدَادَ الْإِسْلَامِي الْيَوْمَ خَاصَّةً فِي دَوْلِ أَوْرُوبَا وَالْأَمْرِيكِتَيْنِ وَاسْتْرَالِيَا مِنْ أَقْوَى الْأَدْلَةِ عَلَى صِلَاحِيَةِ هَذَا الْكِتَابِ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَقُدْرَتِهِ عَلَى مَخَاطَبَةِ عُقُولِ الْإِنْسَانِيَةِ فِي أَزْهَى عَصُورِ تَقَدُّمِهَا.

وقد كثرت الشهادات وفاضت الكثير من الأخبار على تأثر الكفار بالقرآن الكريم، قال المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد: «... (إننا) نجد حتى من بين المسيحيين مثل "ألفار" "Alvar" (الإسباني) الذي عُرف بتعصبه على الإسلام يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به».

ولقد ألف الدكتور مراد هوفمان سفير ألمانيا السابق بالمغرب كتاب (الإسلام كبدل)، وفيه شهادات كثيرة على إعجاز القرآن وصدقه وصدق النبي ﷺ وكمال الشريعة.

آمنوا بعد سماع القرآن:

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصٌ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ (المائدة: ٨٢ - ٨٦).

فهذه فئة من الناس سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ولانت قلوبهم وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثر العميق بالحق الذي سمعوا، ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن، والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق، إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً موقف القبول لهذا الحق والإيمان به والإذعان لسلطانه وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قويّة صريحة عميقة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

نموذجان لِغَيْرِ المسلمين المعاصرين كان القرآن الكريم سبباً في تربية وتهذيب أنفسهم، وذلك بالعودة بهم إلى رحاب التوحيد والإيمان:

الأول: مُحَمَّدُ جون ويستِر رئيس البعثة الإسلامية الإنجليزية:

وُلِدَ مسيحياً بروتستانتيّاً عام ١٩٣٠م، تَحَيَّرَ في عقائد المسيحية والشيوعية، وعِنْدَمَا كان مقيماً في أستراليا طَلَبَ نسخةً مِنَ القرآن الكريم مِنْ مكتبة سيدني العامة، وما أَنْ قرأ المقدمة لِلْمُتَرْجِمِ حَتَّى لَمَسَ تَعْصَبَهُ ضِدَّ الإسلام، فَأَغْلَقَ الْكِتَابَ وَتَرَكَه. وَبَعْدَ أسابيع كان في بيرث - غربيّ أستراليا - فَبَحَثَ عَنْ نسخة لِلقرآن شريطةَ أَنْ يَكُونَ مُتَرْجِمَهَا مُسْلِمًا.

قال: «ولا أستطيع أَنْ أُعَبِّرَ في كلمات عَنْ مَدَى تَأْثِيرِي بِمُجَرَّدِ تلاوتي لِأَوَّلِ سورة الفاتحة بِآياتها السبع. ثُمَّ قرأتُ عَنْ حياة الرسول ﷺ، وَقَضَيْتُ بِضْعَ ساعات في المكتبة، في ذلك اليوم وجدتُ طَلَبَتِي وَبُغْيَتِي، ثُمَّ خرجتُ مِنَ المكتبة لِأَتناولَ فَنَجَانًا مِنَ القهوة، ثُمَّ وَقَعَ بصري على مسجد، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: «قَدْ عَرَفْتُ الْحَقَّ، فعليك اتباعه على الفور»، فدخلتُ المسجدَ وَأَسْلَمْتُ».

الثاني: القس إبراهيم خليل فيلبس (إبراهيم خليل أحمد):

وُلِدَ في الإسكندرية عام ١٩١٩م نشأ نشأة مسيحية ودرس بمعاهد الإرسالية الأمريكية، وحصل على دبلوم اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة، وكان راعياً لِإحدى الكنائس وأستاذًا للعقائد واللاهوت بكلية اللاهوت بمدينة أسيوط.

قال عن نفسه: «كان ذلك في إحدى الأمسيات من عام ١٩٥٥م سمعتُ القرآن مذاعاً بالراديو في قوله تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (سورة الجن: ١ - ٢).

كانت هاتان الآيتان بمثابة الشعلة التي أضاءت ذهني وقلبي للبحث عن الحقيقة، وفي تلك الأمسية عَكَفْتُ على قراءة القرآن حتى أشرقت شمس النهار.

ثم قرأت مرةً ثانيةً فثالثةً فرابعةً حتى وجدتُ قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

عند هذه الآية قرر أن يقوم بدراسة متحررة للكتاب المقدس، فقرر الاستقالة من عمله، وعكف على دراسة التوراة والأنجيل من عام ١٩٥٥م حتى ١٩٥٩م حتى أتاه اليقين في ٣١ مايو ١٩٦٠م فأشهر إسلامه وغيّر اسمه من إبراهيم خليل فيلبس إلى إبراهيم خليل أحمد، وقام بعد إسلامه بإلقاء عدد من المحاضرات في علم (الأديان المقارن) بالمساجد في مدن الإسكندرية والمحلة الكبرى وأسيوط والمنيا وسوهاج وأسوان وفي بعض كليات الجامعات المصرية، فاعتنق كثير من الشباب النصراني الإسلام عندما استبانت له الحقيقة.

وفي عام ١٩٧٥م، طُلب منه تقديم محاضرة بكلية أسيوط، فتكلم عن المسيح عليه السلام وعن الرسول ﷺ من خلال الأنجيل والتوراة، وكان للمحاضرة صدى واسع انتهى بإعلان ١٧ من الشبان أبناء الجامعة إسلامهم.

والتقى - مع الدكتور جميل غازي رحمه الله - ب ١٣ قسيساً عام ١٤٠١هـ بالسودان في مناظرة مفتوحة انتهت باعتناقهم الإسلام جميعاً، وهؤلاء كانوا سبب خير وهداية لغرب السودان حيث دخل الألوف من الوثنيين وغيرهم دين الله على أيديهم، وله مؤلفات منها: "محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن". "المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي"، وغيرهما كثير.

أثر القرآن فيمن لا يعرفون من اللغة العربية شيئاً؛

إن القرآن الكريم كما أثر تأثيراً بليغاً في نفوس العرب كفّاراً ومسلمين، وأثر في نفوس المسلمين من غير العرب، المؤمّلين به الخاشعين عند تلاوته، كذلك أثر في نفوس غير العرب حتى من الكفار الذين لا يعرفون من اللغة العربية شيئاً.

يحكي أحد الدعاة العرب أنه كان ضمن ستة من المسلمين على ظهر سفينة مصرية، تمخّض بهم عُباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك، من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجنب ليس فيهم مسلم، وخطر لهم أن يقيموا صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة، وقد وافق قائد السفينة الكافر على إقامة الصلاة، وسمح لبحّارة السفينة وطُهاثها وخدّمها أن يصلوا معهم - ممن لا يكون منهم في وقت العمل - وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً؛ لأنها كانت المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر هذه السفينة.

وقام هذا الداعية بخطبة الجمعة، وإقامة الصلاة، والركاب الأجنب معظمهم متحلّقون يرقبون صلاتهم. وبعد الصلاة جاءهم كثيرون منهم يهنّونهم على نجاح (الْقُدَّاس)، فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتهم أنه (قُدَّاس)، فشرحوا لهم الحال، وأنه لا يُسمّى قُدَّاساً، وإنما هي صلاة الجمعة؛ ولكن امرأة من بين ذلك الحشد عرّفوا فيما بعد أنها أوروبية، كانت شديدة التأثير والانفعال، تفيض عيناها بالدمع، ولا تتمالك مشاعرها، جاءت لتسألهم عن شيء معين، وهي تبدي إعجابها بما فعلوا من نظام وخشوع.

جاءت لتسأل عن شيء معين وهي تقول: «أي لغة هذه التي كان يتحدث بها قَسِيْسُكُمْ؟»، وهي لا تتصور أن يقيم مثل هذا إلا قَسِيْس، فصحّحوا لها هذا الفهم وأجابوها بأن هذا ليس قسيساً بل إمامٌ مسلمٌ. قالت: «إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع عجيب، وإن كنت لم أفهم منها شيئاً!».

ثم كانت المفاجأة الحقيقية لهم وهي تقول: «ولكن ليس هذا هو الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه! إن الموضوع الذي لفت انتباهي وأثر في حسي، وانطبع في قلبي هو:

أن الإمام - بعد أن تصحّحت الكلمة، وصحّحت - كانت تردّ في أثناء كلامه فقرات من نوع آخر، يختلف عن بقية كلامه، نوع أكثر عمقاً، وأشد إيقاعاً في النفس، إن هذه الفقرات التي كان يقولها أثناء الخطبة أحدثت في نفسي قشعريرة ورعدة، إنها شيء آخر.

وتفكّروا قليلاً، ثم أدركوا ماذا تعني، إنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وأثناء الصلاة، وكانت مع ذلك مفاجأة لهم تدعو إلى الدهشة من امرأة أعجمية لا تفهم شيئاً من اللسان العربي، وتتأثر بتلك الطريقة.

أثر القرآن الكريم على المنافقين؛

لقد ترك القرآن الكريم أثره في نفوس المنافقين فصاروا يعيشون في خوف وحذر دائمين منه، لأنّه يكشف عن خبيثة قلوبهم وينشر على المؤمنين ما أسرّه المنافقون وأبطنوه في طوايا نفوسهم، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنِّي أَخْرَجُ مَا يَخْذَرُونَ ٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَلَنَعِبُ قُلِ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ٦٥ لَا تَعْذَرُوا فَمَنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (التوبة: ٦٤ - ٦٦).

إلى هذا الحدّ بلغ تأثير القرآن الكريم في نفوس المنافقين فهم يحذرونه حتى قبل أن ينزل، لأنهم أخفوا في قلوبهم أموراً، والقرآن سيكشفها بصدق لا مراء فيه.

لقد تسأل المنافقون هذا السؤال العجيب الذي يتبيّن منه خوفهم الدائم على ما تخفيه قلوبهم أن يظهره القرآن ويكشفه يقول الله تعالى مصوراً حالهم: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٤ - ١٢٥).

فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة فزادتهم إيماناً وقد خفقت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيماناً وقد استشعروا عناية ربهم بهم في إنزال

آياته عليهم فزادتهم إيماناً وأما الذين في قلوبهم مرض الذي في قلوبهم رجس من النفاق فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون، وهو نبأ من الله صادق وقضاء منه سبحانه محقق.

فأثر القرآن ومظاهر هذا التأثير واضحة في الفريقين: في المؤمن: زيادة في الإيمان واستبشار في الوجود، وفي المنافقين: زيادة في الرجس والشر والذنس، وخاتمة سيئة، وهو موت على الكفر.

فأثر القرآن مختلف في الفريقين حسب نوع المتلقى وما لديه من استعدادات لاستقبال المؤثرات القرآنية أو موانع في أمراض القلوب المتنوعة، ومنها بالنسبة للتأثر بالقرآن كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (فصلت: ٤٤). وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غُذي بما غُذي به السليم لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

تأثير القرآن الكريم على الملائكة:

ويظهر ذلك في استماعها لقراءة القرآن وتنزلها عند القراءة.

فَعَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رحمته الله قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَتْ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ ^(١) رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى مَا يَرَاهَا.

(١) أي: جرَّ أسيدُ ابنه يحيى من المكان الذي هو فيه حتى لا يبطأه الفرس.

فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَقْرَأُ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، أَقْرَأُ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ»^(١)، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَأَنْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظِّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا، قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَا أَصْبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ». (رواه البخاري).

ورواه مسلم عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مَرْبِدِهِ، إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ أُسَيْدُ: «فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظِّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ الشُّرُجِ، عَرَجْتُ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، فَعَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مَرْبِدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقْرَأُ ابْنَ حُضَيْرٍ»، فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقْرَأُ ابْنَ حُضَيْرٍ»، فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقْرَأُ ابْنَ حُضَيْرٍ».

فَأَنْصَرَفْتُ، وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظِّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الشُّرُجِ، عَرَجْتُ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَا أَصْبَحْتَ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَرِي مِنْهُمْ» (رواه البخاري ومسلم).

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقْرَأُ سُورَةَ (الْكَهْفِ)، وَفَرَسٌ لَهُ مَرْبُوطٌ بِشَظْنَيْنِ^(٢) فِي الدَّارِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو، فَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَسَلَّمَ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ،

(١) أي: كَانَ يُبْغِي أَنْ تَسْتَمِرَّ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَعْتِمِدَ مَا حَصَلَ لَكَ مِنْ نُزُولِ السَّكِينَةِ وَالْمَلَائِكَةِ وَتَسْتَكْنِرَ مِنَ الْقِرَاءَةِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ بَقَائِهَا.

(٢) شَظْنَيْنِ: حَبْلَيْنِ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ؛ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَفْرَأُ فَلَانٌ^(١)؛ فَتِلْكَ السَّكِينَةُ تَنْزَلَتْ بِالْقُرْآنِ»^(٢). (رواه البخاري ومسلم).

أثر القرآن الكريم في الجن:

كما كان للقرآن أثر بالغ وواضح على الإنس مؤمنهم وكافرهم كان له ذلك التأثير على الجن وهذا ما سجّله القرآن الكريم حيث قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ^(٣١) قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ^(٣٢) يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ^(٣٣) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأحقاف: ٢٩ - ٣٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا^(٣٤) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن: ١ - ٢).

أثر القرآن الكريم على الجماد:

القرآن له أثر عظيم لأنه كلام الله تعالى وهناك آيات تخبر عن أثر القرآن الكريم على الجبال لو خاطبها الله به وآيات تبين أثر القرآن على القلوب المؤمنة التي تحملها.

(١) أي: كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَمِرَّ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَعْتَمِدَ مَا حَصَلَ لَكَ مِنْ نُزُولِ السَّكِينَةِ وَالْمَلَائِكَةِ وَتَسْتَكْتَرِ مِنَ الْقِرَاءَةِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ بَقَائِهَا.

(٢) قال النووي: «قِيلَ فِي مَعْنَى السَّكِينَةِ هُنَا أَشْيَاءٌ، الْمُخْتَارُ مِنْهَا أَنَّهَا شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ طُمَآنِينَةٌ وَرَحْمَةٌ وَمَعَهُ الْمَلَائِكَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ رُؤْيَةِ أَحَادِ الْأُمَّةِ الْمَلَائِكَةَ وَفِيهِ فَضِيلَةُ الْقِرَاءَةِ وَأَنَّهَا سَبَبُ نُزُولِ الرَّحْمَةِ وَحُضُورِ الْمَلَائِكَةِ وَفِيهِ فَضِيلَةُ اسْتِجَاعِ الْقُرْآنِ». [شرح النووي على مسلم (٦/ ٨٢)].

أما أثر القرآن الكريم على الجبال والجماد فيما لو خاطبها الله به ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلِّغْ لِلَّهِ الْأَمْرَ جَمِيعًا﴾ (الرعد: ٣١).

يقول تعالى مبينا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ من الكتب الإلهية ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ جنانا وأنهارا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ لكان هذا القرآن. ﴿بَلِّغْ لِلَّهِ الْأَمْرَ جَمِيعًا﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟

فهذا هو أثر القرآن على الجبال والأرض والموتى فيما لو خاطبها الله به وكلّفها به وأمرها بتنفيذ ما فيه ولكن الله الحكيم سبحانه ما أراد ذلك، لقد شاء أن يكون القرآن خطاباً للبشر الأحياء ذوي القلوب والنفوس والمشاعر والأحاسيس فلماذا لا يتفاعلون معه؟ ولماذا لا يسعدون معه؟

وأخبرنا الله تعالى عن أثر القرآن الكريم على الجبل - فيما لو خاطبه به - فقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١).

فإن هذا القرآن لو أنزله الله ﷻ على جبل لرأيت خاشعاً متصدّعاً من خشية الله لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيها محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها.

الجبل الجامد يتأثر بالقرآن لو أنزله الله عليه، سيتصدّع هذا الجبل من تأثير القرآن ويخضع هذا الجبل من خشية الله، ولكن الله تعالى ما شاء ذلك، إنما شاء إنزال القرآن على بشر وليس على جبل، فأنزله على قلب سيد الخلق محمد ﷺ وتأثر بالقرآن وتفاعل معه. وهذا القرآن خطاب للإنسان، فلماذا لا يتأثر كيانه بهذا القرآن، ولماذا لا يخضع قلبه من خشية الله منزل هذا القرآن؟